﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ ٤٩﴾

[الأنبياء:49]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

خشيةُ الله بالغيبِ من أهمِّ ثمراتِ التَّقوى

لَمّا ذَكَرَ البيانُ القرآنيُّ التَّقوى في قوله ﴿وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ ذَكَرَ ما أنتَجَتْهُ هذه التّقوى، وهو خشيةُ الله، والإشفاقُ من عذابِ يوم القيامَةِ[1]، أي: بَيَّنَها بوصفهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ﴾[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَخۡشَوۡنَ﴾: (خشي) أصلٌ يَدُلُّ على خَوْفٍ وذُعْرٍ، فالخَشْيَةُ: الخَوْفُ[3] المَشوبُ بعظَمَةٍ ومَهابَةٍ، وهي: الرَّجاءُ والعلم[4]، وقيل: خوفٌ يشوبهُ تعظيمُ المخوَّف منه، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يُخشَى منه[5]، ومعنى ﴿يَخۡشَوۡنَ﴾: يخافون ربَّهم غائبين عن الآخرةِ وأحكامِها[6]، مُعظِّمين له مؤمنين بأُلوهيَّتِه مُصدّقين لكلّ ما يأمر به، طائعين لأوامرِه ونواهيه[7].

2) ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾: (غيب) أصلٌ يَدُلُّ على تَسَتُّرِ الشَّيءِ عَنِ العُيونِ، ومِنْ ذلك الغَيْبُ: ما غابَ مِمّا لا يَعْلَمُهُ إلّا اللهُ[8]، وكلُّ مكانٍ لا يُدْرَى ما فيه فهو غَيْبٌ، وكذلكَ المَوْضِعُ الَّذي لا يُدْرَى ما وراءَه[9]، والغَيْبُ: ضِدُّ الحُضورِ، وضِدُّ المُشاهَدَةِ، فهو كلُّ ما غابَ عَنِ العُيون سَواءٌ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 437.
(2) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 431.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خشي).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (خشي).
(5) الرّاغب، المفردات: (خشى)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 1/ 505.
(6) ابن جرير، مفاتيح الغيب: 18/ 454، والواحديّ، التّفسير البسيط: 15/ 100.
(7) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4879.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غيب).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (غيب).

أكانَ مُحصَّلاً في القُلوب أم غَيْرَ مُحصَّلٍ[1]، ويُقالُ للشَّيءِ: غَيْبٌ وغائِبٌ باعتباره بالنّاس لا باللّه تعالى، فإنَّه لا يغيبُ عنه شيءٌ، كما لا يعزبُ عنه مثقال ذرَّةٍ في السَّموات ولا في الأرض[2]، والمقصودُ بالغَيبِ في الآية: ما غاب عن عيون الناس، والمعنى: يخشون ربّهم في خاصّتهم لا يريدون بذلك رياءً ولا لأجلِ خوفِ الزواجر الدنيوية والمذمّة من الناس[3].

3) ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾: (سوع) أصلٌ يَدُلُّ على اسْتِمرارِ الشَّيْءِ ومُضيِّهِ، مِنْ ذلكَ السّاعَةُ سُمّيَتْ بذلكَ، يُقالُ جاءَنا بَعْدَ سَوْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وسواعٍ، أيْ: بَعْدَ هَدْءٍ مِنْهُ[4]، والسّاعَةُ: الوقت الحاضر، وهي في الأصْلِ تُطْلَق بمعْنيين: أحدُهما أنْ تكونَ عِبارَةً عَنْ جُزءٍ مِنْ أربعةٍ وعِشْرينَ جُزءًا هيَ مجموعُ اليَوْمِ واللَّيْلَةِ، والثّاني أنْ تَكونَ عبارة عَنْ جُزءٍ قَليلٍ مِنَ النَّهارِ أوِ اللَّيْلِ، يُقالُ: جلستُ عِنْدَكَ ساعَةً مِنَ النَّهارِ: أي وقْتًا قليلًا منه، ثُمَّ استعير لاسْم يَوْمِ القيامَةِ[5]، قيل سُمّيَتْ بذلكَ لأنَّها تَفْجأُ النّاس في ساعَةٍ، فيَموت الخَلْقُ كلُّهُم عِنْد الصَّيْحَة الأولى[6]، أو أُطْلِقَتْ على القيامة باعتبارها الأمدَ، أو غايةَ المهلة التي أُمهِلَها النّاس على الأرض[7]، والمراد بالسّاعة في الآية: يوم القيامة، أي: وهم من السّاعة الّتي تقومُ فيها القيامة خائفون من أهوالها وعذابها[8]، فهم يخافونَ الحساب؛ لأنّهم يستصغرون حسناتِهم ويستكثرون سيئاتِهم[9].

4) ﴿مُشْفِقُونَ﴾: (شفق) أصلٌ يَدُلُّ على رِقَّةٍ في الشَّيْءِ[10]، والشَّفقةُ: رِقَّةٌ مِنْ نُصْحٍ، أوْ حُبٍّ يؤدّي إلَى خَوْفٍ، تَقولُ: أنا مُشْفِقٌ عَلَيْكَ، أيْ: أخاف، وأشْفَقَ عليه: حَذِرَ، وأشْفَقَ مِنْهُ: جَزِعَ[11]، ولي عليه شَفَقَةٌ، أي: رحمة ورِقَّةٌ وخوفٌ من حلولِ المكروه به مع نُصْحٍ[12]،

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبِيدِيّ، تاج العروس: (غيب).
(2) الرّاغب، المفردات: (غيب).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 90.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوع).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبِيدِيّ، تاج العروس: (سوع).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سوع).
(7) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سوع).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 454، والواحديّ، التّفسير البسيط: 15/ 100.
(9) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4879.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شفق).
(11) ابن منظور، لسان العرب: (شفق).
(12) الزَّمَخْشَرِيّ، أساس البلاغة: (شفق).

فالإشفاقُ: عِنايَةٌ مخْتَلِطَةٌ بخَوْفٍ؛ لأنَّ المُشْفِقَ يُحبُّ المُشْفَقَ عليه، ويخافُ ما يَلْحَقُه[1]، ومعنى ﴿مُشْفِقُونَ﴾: أيْ: خائِفونَ وجِلونَ[2]، ومعنى الإشفاق من السّاعة: الإشفاقُ من أهوالها، فهم يُعِدُّون لها عُدَّتها بالتّقوى بِقَدْرِ الاسْتطاعة[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

وصـفُ حـالِ المتّقين الّذين ينتفعون بما جاءَ به موسى وهارون عليهما السلام

يذكر البيانُ القرآنيُّ صفةَ حالِ المتّقين الّذين ينتفعون بما جاء به موسى وهارون بنوعين من الصّفات: أُوْلاهُما: أنَّهم يخشونه، أي: يخافونه معظّمين له مؤمنين بألوهيَّته مصدّقين لكلِّ ما يأمرُ به، طائعين لأوامره ونواهيه وهو غائبٌ عنهم، عَلِموه بالعقلِ والنَّقلِ فهُم يعبدونَه كأنَّهم يرونه، والوصف الثّاني: أنَّهم يعرفونَ أنَّ اللّه تعالى لم يخلقِ النّاسَ عَبَثًا، بلْ لهم بعثٌ وحسابٌ وعقابٌ، وهم يستشعرون الخوفَ من نتيجةِ الحسابِ؛ لأنَّهم يستصغرون حسناتِهم ويستكثرون سيئاتِهم[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة التّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

المؤمنون مستحقّون للحكمِ عليهم بالتقوى

عبّر البيانُ القرآنيُّ عن صفةِ المتّقين بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ دون الاسمِ الظّاهر في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾، ولم يقل سبحانه: (الخاشين لربِّهم)؛ للإيماءِ إلى وجه استحقاقهم لحكم اللّه لهم بالتّقوى، فخشيتهم للّه بالغيبِ وإشفاقهم من الساعةِ دليلٌ على تقواهم للّه، ولقصدِ الإبهامِ الذي من أسراره هنا التّشويقُ لمعرفة ما يرادُ بيانُه؛ وهو فعل خشيةِ اللّه بالغيب، والوجل من يوم القيامة، والتّركيز عليه لا على شخوصِهم، والتّنبيه على التّعميم، أي: كلّ الّذين يخشونَ ربّهم بالغيب، ويستشعرون الخوفَ نتيجةَ الحساب.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (شفق).

(2) القُرْطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 295، والبَيْضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 53.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 90.

(4) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4879.

بلاغة التّعريض بالوصف بالاسم الموصول وصلته:

في مـدْحِ خشيةِ المتّقين بالغيبِ تعريضٌ بغيرهم

في وصفِ المتّقين بالاسم الموصول وصلته في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ تعريضٌ باليهود، وأنّهم ليسوا على هذه الصفةِ، فهم ماديّون، لا يتعاملون إلا بالحسّيات، ولا يؤمنون باللّه إلّا إيمانًا طفيفًا قلقًا، ولا يعملون للآخرة، ولا يُشفقون ممّا يلقاهم فيها من عذابِ اللّه[1]، وتعريضٌ كذلك بكلّ من لم يهتدِ بكتابِ اللّه تعالى؛ بدلالةِ مفهومِ المخالفة، فليسَ هو مِنَ الَّذينَ يخشونَ ربَّهم بالغيبِ، وهؤلاء هم فرعونُ وقومهُ[2]، وكلُّ الكفرَةِ حيثُ لا يتأثَّرونَ بالإنذارِ ما لم يُشاهدوا ما أُنْذروه[3].

فائدة تخصيص المتّقين بِصِفَتَيِ الخشيةِ بالغيب والإشفاق من السّاعة:

خشـيـةُ اللـه بـالـغـيـبِ والإشـفـاقُ من السّاعةِ من أعلى صفاتِ الإيمانِ وأهمِّها

خصّ البيانُ القرآنيُّ المتّقين في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾ بصفتينِ هما: خشيةُ اللّه بالغيبِ، والإشفاقُ من أهوالِ الساعة دونَ بقيّةِ الصّفات؛ لكونِهما من أعلى صفاتِ الإيمان وأهمِّها[4]، وللاختصار؛ إذ إنّ الصِّفَةَ الأولى تشيرُ إلى أهمِّ حالَةٍ لهم فيما يتعلَّقُ بالدُّنيا، والصفةَ الثانيةَ تشيرُ إلى أهمّ حالةٍ لهم فيما يتعلَّقُ بالآخِرَةِ.

سرُّ فصْلِ جملةِ ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾:

في بيانِ صفاتِ المتّقين مدحٌ لهم

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ جملةَ ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ عن التي قبلها: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ ولم يربطهما بعاطفٍ؛ لأحدِ احتمالين:

الأوَّلُ: لِما بين الجملتين من كمالِ اتّصالٍ؛ إذ إنّ الجملةَ الثانيةَ جاءتْ في محلّ جَرٍ على الوصْفيَّةِ للمتّقين بصفتين؛ الأولى: أنّهم

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 910.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 90.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 71، والقاسِميّ، محاسن التّأويل: 7/ 199.
(4) الصاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 13.

يخشون ربّهم بالغيب، والثانية: أنّهم وُجِلون من أهوالِ السّاعة، أيْ: أرْدَفَ صفتَهم الإجماليّةَ بتفصيلٍ يُعْرَفُ به المُرادُ.

الثّاني: لِما بين الجملين من شبه كمالِ اتّصالٍ؛ إذ إنّ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ مبنيٌّ على سؤالٍ مقدَّرٍ نشَأ مِن السّياقِ؛ وذلك أنّه لمّا ذَكرت الآيةُ السّابقة أنّ التّوراة كِتابٌ يَنْتَفِعُ بِما فيه المُتَّقونَ دونَ غَيْرِهِم مِنَ الضّالّينَ، كأنَّه قيل: ما صفاتُ هؤلاء المتّقين؟ فقيل: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾، وتكون الجملةُ في محلّ رفعٍ، أي: هم الّذين يَخْشَون ربَّهم بالغيب.

نكتة التّعبير عن فعل الخشية بالمضارع المجموع:

خشيةُ المتّقين لله بالغيب مستمرّةٌ متجدّدةٌ منهم

التَّعبيرُ بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾؛ لإفادةِ استمرارِ حدوثِ خشيةِ الله بالغيب عندهم وتجدّدِها، أي: كلَّما تكشَّفَتْ لهم حقائقُ الكونِ وأسرارُه ازدادوا لله خشيةً، ومنه مهابةً وإجلالاً، على الرغم من أنَّهم لا يَرَوْنه بأعينهم، إنما يَرَوْنَه في آثار صُنْعِه، أو أنّ إيمانهم بالأمورِ الغَيْبيَّة التي لا يشاهدونها مستمرٌّ، فكأنّها - بعد أنْ أخبر اللّهُ بها - مشهدٌ لهم يروْنَها بأعينهم، أو أنّ خشيتهم لربِّهم مستمرَّةٌ في خَلَواتِهم عن الخَلْق، فمهابةُ الله والأدبُ معه تلازمُهم حتى في خَلْوتِهم وانفرادهم[1]، ولإفادةِ استحضارِ هذه الحال الّتي عليها المتّقون صورةً مُثارةً في المُخيّلة، بما يُظهر حُسْنَ فِعْلِهم وعظيمَ شأنِهم.

وقد جاءتْ صيغة الجمع مناسبةً لحالهم، فقد اجتمعوا وأجمعوا على الإيمانِ باللّه بالغيبِ المذكورِ آنفًا، ودَعَوا إليه، وأُوذوا في سبيله، وفيه إشارةٌ إلى أهمّيَّةِ الاجتماع على الخير، بوصفه أحدَ المثبِّتات على الحقِّ؛ فيَدُ اللّه مع الجماعة.

(1) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 15/ 9565.

إيثار لفظ الرّبوبيّة وإضافتها إليهم:

كـثرةُ إحسانِه سبحانه تقتضي استمرارَ خشيةِ المتّقين

آثَر البيانُ القرآنيُّ التَّعبير بلفظ الرّبوبيّة وأضافها إليهم في قوله: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾؛ لِما فيها من تنبيهٍ على ما يريدُه الله بهم من التّشريفِ والإكرامِ والإحسانِ، وإشعارٍ باللطفِ بهم، وتبيينٍ لمقتضياتِ هذه الخشيةِ من كونه سبحانه المُحسنَ إليهم بعد الإيجادِ بالتَّربية وأنواعِ الإحسانِ[1].

معنى الباء في ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾:

معنى الإلصاق مُـؤْذِنٌ بتَلَبُّسِ خـشـيـتِـهـم بالغيب، ومعنى الظَّرفيّةِ مُـؤْذِنٌ بخشيتهم في خَلَواتِهم

الباءُ في قوله تعالى: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ للإلصاقِ، والمَعْنى - على اعتبار ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حالٌ من الفاعل - : يخشون ربَّهم متلبِّسين بالغيبِ، أي: غائبين ومنفردين عن النّاس[2]، والمعنى - على اعتبار ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حالٌ من المفعول - : يخشون ربَّهم متلبِّسين بالغَيْب، أي غائبًا عنهم من حيثُ إنَّه تعالى غيرُ مُشاهَدٌ لهم محجوبٌ عنهم حجابَ العِزّة[3].

ويمكن أنْ تكون بمعنى (في) الظَّرفيَّة، لتنزيلِ الحالِ منزلةَ المكان، أي الحالةُ الغائبةُ، وهي حالَةُ عَدَمِ اطِّلاعِ أحَدٍ عليهم، والتَّقدير: (يَخْشَوْنَ رَبَّهم في غيبهم) - وهو ما غاب عن أعين النّاس - أي في خاصَّتِهم، لا رياءً ولا خوفًا من الزَّواجِرِ الدّنيويّةِ والمذَمَّةِ من النّاس[4].

وَجْهُ تخصيص الخشية بالغيب:

بـيـانُ فـضـلِ الإيمان بالغَيْب عـلـى الإيـمـان بالشَّهادَة

أتى تَخْصيصُ الخشيةِ بالغيبِ في قوله تعالى: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾؛ لأنَّ أكثرَ ما يجبُ أنْ يُؤْمِنَ به المؤمنُ غائبٌ؛ كالباري سبحانه وصفاتِه، والمَلائكَةِ والبعثِ والحشرِ والنَّشْرِ، والصِّراطِ

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 431.
(2) الصاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 1203.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 534.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 90.

والميزانِ وغيرها، ولفضلِ الإيمانِ بالغَيْب على الإيمانِ بالشَّهادَة[1]، ولأهمّيَّته؛ لأنّ مَنْ يؤمن بالغيبِ يؤمنُ بالشّهادة بطريقِ الأولى، ولأنّ مَنْ لا يؤمنُ بالغيبِ في الدّنيا لا يُقبَل إيمانُه يوم القيامة؛ لأنّه لم يَعُدْ هناك غيبٌ، قال تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ١٥٨﴾ [الأنعام:158].

معنى الواو في قوله ﴿وَهُم﴾:

حـالُ المتّقين تجمعُ بين خشيتهم بالغيبِ وإشفاقهم من السّاعة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾ تحتمل أنْ تكونَ استئنافيّةً، والجملةُ استئنافُ إخبارٍ عنهم، أو أنْ تكونَ عاطفةً، والجملةُ معطوفةٌ على صِلَة ﴿ٱلَّذِينَ﴾، وهي قوله تعالى: ﴿يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ فتكونَ الصِّلةُ الأُولى مُشعِرةً بالتَّجدُّدِ دائمًا؛ كأنَّها حالَتُهم فيما يتعلَّقُ بالدُّنيا، والصِّلةُ الثّانيةُ مِن مُبتدأٍ وخبَرٍ عنه بالاسمِ المُشعِرِ بثُبوتِ الوصْفِ، كأنَّها حالَتُهم فيما يتعلَّقُ بالآخرة[2].

سرّ التّعبير بالضّمير (هم):

المُبالَغَةُ بديمومةِ إشفاقِ المتّقين من السّاعة وقصرُه عليهم

في التَّعبيرِ بالضَّمير (هم)، وتصديرِه وبناءِ الحكم عليه في قوله تعالى: ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾ مُبالَغَةٌ؛ لأنَّ الجملةَ الاسميّةَ تفيدُ الدوامَ والثَّباتَ، أي: إنّ الخوفَ عندهم ثابتٌ دائمٌ، فما لم يكن الخوفُ دائمًا لا يُعْبأ به، ولأنّ التّقديمَ يفيدُ معنى التَّخْصيص والقصرِ المفيدِ للحُكْمَين المختلفَين: إيجابيٍّ صريح، وسلبيٍّ ضمنيٍّ، فالمبالغةُ مستفادةٌ من الحكم الإيجابي؛ لإفادته أنَّ الإشفاقَ مقصورٌ عليهم، وأمّا الحكم السّلبيُّ الضّمنيُّ فيُستفاد منه التّعريض بالمشركين بأنَّهم لم يخافوا من السّاعة، ولذا لم يَتَهَيَّؤوا لها بأنواعِ القُرُباتِ، والمعنى: وهم مُشفقون،

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 1/ 461.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 437.

أي: خائفون من السّاعة دون مَنْ عداهم، ومَنْ عداهم لا يشفقون منها، أي: الإشفاقُ مقصورٌ عليهم لا يتجاوزهم إلى مَنْ سِواهم[1].

معنى ﴿مِّنَ﴾ في قوله ﴿مِّنَ ٱلسَّاعَةِ﴾:

حرف الجرّ ﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ بيانيَّةٌ؛ لبيان المُشْفَقِ منْه؛ وهو السّاعةُ على حذفِ مضافٍ، أي: من أهوالِ السّاعة، والمعنى: أنّهم مشفقون من أهْوالِها، وسائرِ ما يَجْري فيها مِنَ الحِسابِ والسُّؤالِ، فهم يُعِدّونَ لَها عُدَّتَها بِالتَّقْوى بِقَدْرِ الاسْتِطاعَةِ.

الإشـفـاقُ من أهـوالِ السّاعةِ يجعلُ المؤمنين يُـعِـدّونَ لَـها عُدَّتَها

تخصيصُ ذِكْرِ السّاعة وإشْفاقُ المتّقين منها:

خصَّ النصُّ القرآنيُّ ذكرَ السّاعة وإشفاقَ المتّقين منها بالذِّكْرِ بعْدَ وصْفِهم بالخشيةِ على الإطلاقِ في قوله تعالى: ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾؛ للعنايةِ بشأنِ السّاعة؛ حيث إنّها من أعظمِ المخلوقات، وأعظمِ المُخَوِّفاتِ[2]، والإيمانُ بها من أركانِ الإيمان في كلّ الرِّسالاتِ السّماويَّة، وهي كذلك من أعظمِ الغَيْبيّات الّتي امتُدِحَ المتّقونَ بالإيمان بها؛ لكثرةِ المُماراة والمُجادلة فيها، وتكذيبِ الأممِ رُسَلَها في إخبارهم بها، فهيَ محطُّ الأنْظارِ، ومحلُّ البحثِ والجدلِ بين المنكرين والموحّدين، لِما فيها من غُيوبٍ متعلّقةٍ فيها، ولذا كثُرَ الحديثُ عن قيامِ السّاعة وإثباتِ البعث، وخاصّةً في السّورِ المكّيّة.

السّـاعـةُ مـن أعـظـمِ الـغَـيْـبـيّـاتِ، وأهوالُها أعْظَمُ حامِلٍ عَلى كُلِّ خَيْرٍ

والإشفاق منها للتّنصيصِ على اتّصافهم بضِدِّ ما اتَّصفَ به المُستعجِلونَ[3]، والمعنى: وهم مِنَ السّاعةِ الَّتي نَضَعُ فيها المَوازينَ، وقد أعْرَضَ عنها الجاهِلونَ مع كوْنِها أعْظَمَ حامِلٍ على كُلِّ خَيْرٍ، ومُبْعِدٍ مِن كُلِّ ضَيْرٍ مُشْفِقون؛ لأنَّهم لِقيامِها مُتَحَقِّقونَ، وبنصْبِ المَوازينِ فيها عالِمون[4].

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 534.
(2) الصاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 1203، وسيّد طنطاوي، التّفسير الوسيط: 9/ 219.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 71.
(4) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 431.

نكتة تقديم شِبْه الجملة ﴿مِّنَ ٱلسَّاعَةِ﴾ على الخبر:

اهتمامٌ بذكرِ السّاعةِ وتشويقٌ لحالِ الوجِلينَ منها

قدّم النصُّ القرآنيُّ شِبْهَ الجملة ﴿مِّنَ ٱلسَّاعَةِ﴾ على الخبر ﴿مُشْفِقُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾؛ لِما يحقّقُه من إحكامٍ في اللَّفظ من خلال الأثرِ الصوتيِّ لحروف المدّ اللّيّنة الجوفيّة الهوائيّة الّتي تتناسبُ مع سياقِ الخشية والإشفاق، ولما يحقّقُه من إحكامٍ في المعنى بتأكيدِ مقامِ الإيمانِ بقيامِ السّاعةِ الذي هو أحد رُكْنَيِ الإيمان، وهما الإيمان باللّه واليوم الآخر الذي كَثُرَ التّركيزُ عليه في السور المكيّة، وكذلك في التّقديم اهتمامٌ بالمقدَّم وهو ذكر السّاعة، وتشويقٌ إلى المؤخَّرِ وهو الإشفاقُ منها.

سرّ التّعبير باسم الفاعل المجموع ﴿مُشْفِقُونَ﴾:

الإشفاقُ الدائمُ والثابتُ من أهوالِ السّاعةِ سببٌ لاستحقاقهم لقب المتّقين

استعملَ البيانُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ اسم الفاعل ﴿مُشْفِقُونَ﴾ دون الفعل (يشفقون)؛ للدّلالةِ على ثباتِ صفةِ الإشفاقِ من أهوالِ الساعة، والإعدادِ المستمرِّ لها بالتَّقْوى بِقَدْرِ الاستطاعةِ عند هؤلاء المتقين؛ فهم لِقيامِها مُتَحَقِّقونَ، وبنصْبِ المَوازينِ فيها عالِمون؛ وذلك لكون اسمِ الفاعل يدلُّ على حدثٍ ثابتٍ غير محدّدٍ بزمن، بخلافِ الفعلِ الذي يفيدُ تقييد الحدثِ بزمنٍ معيّن، بما يُعطي للمعنى مزيدًا من المبالغةِ في الثبوتِ والدّوامِ والاستمرارِ.

وتكرار التعبيرُ بصيغةِ الجمع ﴿ٱلَّذِينَ﴾، ﴿يَخْشَوْنَ﴾، ﴿رَبَّهُم﴾، ﴿وَهُم﴾، ﴿مُشْفِقُونَ﴾؛ للتّنويه على أنَّ الحديثَ عن جماعةِ المتّقين، وللإشارةِ إلى كثرةِ المشفقين.

في مدحِ المتّقينَ المشفقينَ من أهوالِ السّاعةِ تعريضٌ بمنْ أنكرها

بلاغة التّعريض في لفظ الاشفاق:

الإشفاقُ خَوْفٌ يُصاحبُه الحذر ممّا تخاف، وفي وصفِ المتّقين في قوله تعالى: ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ بكونهم مشفقين من أهوالِ الساعةِ، وما يقعُ فيها من حسابٍ دقيقٍ، أي خائفين خوفًا مصحوبًا

بالحذرِ منها؛ مخافةَ أنْ تقومَ عليهم قبل أنْ يُعِدّوا أنفسَهم لها إعدادًا كاملًا يُفرحهم بجزاءِ اللّه ساعة يَلْقَوْنَه، وفي هذا الوصف تعريضٌ بأولئك الكافرينَ الجاحدينَ الّذين يُنكرونها، ويستعجلون حدوثَها، فلا يخافون قيامَها ولا يحذرونها بالاستعدادِ لها.

العدول عن الجملة الفعليّة إلى الاسميّة:

حالُ المتّقين فيما يتعلّق بالآخرةِ هو الإشفاقُ الدائم

عَدَلَ البيانُ القرآنيُّ عن الخطابِ بالجملةِ الفعليَّةِ ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ إلى الخطابِ بالجملةِ الاسميَّةِ ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾؛ لضَرْبٍ من التَّأكيدِ والمُبالَغةِ، فقد جيءَ بالاسميَّةِ هنا تنويهًا بالخاصِّ بعْدَ العامِّ، فالخشيةُ مِن اللّه مستمرّةٌ متجدّدةٌ ملازمةٌ لهم، ولكنَّها مِن السّاعةِ أكثرُ مُلازَمةً، وأشَدُّ امتِلاكًا لقُلوبِهم، وأسْرًا لجَوارِحِهم، بما يجعلُهم يتفادَون كلَّ ذنْبٍ؛ خَشيةَ مواجهتِها بما هم فيه[1]، وأمرٌ ثانٍ هو دَيمومةُ الإشفاق من السّاعةِ واستمرارُها، خصوصًا اللّذانِ تُفيدُهما الجملةُ الاسميَّةُ أكثَرَ ممّا تُفيدُهما الجملةُ الفِعْليَّةُ الّتي تتوزَّعُ على الأزمنةِ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخشية والخوف والرّهبة والهيبة والوجل:

أشدُّ الخوفِ خوفُ المتّقين تعظيمًا للخالق ومهابةً لعلمهم بعظمته

الخشْيَة: خَوْفٌ وذُعْرٌ، وهي أشدّ الخوف، والخشْيَة: خَوْفٌ شديدٌ مَشوب بعظَمَةٍ وتعظيمٍ للمخوَّف منه، وأكثر ما يكون ذلك عن عِلْمٍ بما يُخشى منه[3]، فالخشيةُ للعلماءِ العارفين، وعلى قَدْرِ العِلْمِ والمعرفةِ تكون الخشية[4]، والخَوْفُ: أصلهُ يدلُّ على الذُّعْرِ والفَزَعِ[5]،

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 327.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 71، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 327.
(3) الرّاغب، المفردات: (خشى)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 1/ 505، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبِيديّ، تاج العروس: (خشي).
(4) الفيروزآباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 546.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن عباد، المحيط في اللّغة، والزَّبِيديّ، تاج العروس: (خوف).

والخوفُ: توقُّعُ مكروه عن أمارةٍ مَظْنونَةٍ، أو معلومة، ويُضادّه الأمنُ[1]، والخوفُ فيه قلقٌ واضطرابٌ، ويُعبَّر عنه بالجَزَع[2]، الخَوْف يتَعَلَّق بالمكروه، والخشية تتَعَلَّق بمُنزلِ المَكْروه، ولا يُسمَّى الخَوْف من نفسِ المَكْروه خشيَة[3]، والرّهبةُ: مخافةٌ مع تحرّزٍ واضطراب[4]، وطولُ الخَوْف واستمرارُه؛ لذا قيل للرّاهب راهِبٌ؛ لِأَنَّهُ يداوم الخوف[5]، والهيبةُ: مخافةٌ مع إجلال، وتوقير، وتعظيم، والتَّقيَّةُ مِنْ كُلِّ شيءٍ، والمؤمنَ يَهابُ الذُّنوبَ والمعاصيَ فيَتَّقيها[6]، والوجلُ: استشعارُ الخوف[7]، ورَجَفانُ القَلْب وانْصِداعُه لِذِكْرِ مَنْ يُخاف سَطْوتُه وعُقوبتُه أو لِرُؤْيته[8]، ولمّا كان خوف المُتَّقين أشدَّ ما يكون تعظيمًا للخالق ومهابةً منه عن علمٍ ومعرفةٍ بعظمته، وسعة علمِه، وقدرتِه، وسلطانِه، ناسَبَ أنْ يُعبِّر عن ذلك بفعل الخشيةً؛ فالخشيةُ حالةٌ تحصلُ عند الشّعور بعظمةِ الخالقِ وهيبته وخوفِ الحجبِ عنه، وهذه حالةٌ لا تحصل إلا لمن اطّلعَ على حالِ الكبرياء وذاقَ لذّةَ القُرْبِ، فالخشيةُ خوفٌ خاصٌّ[9].

(1) الرّاغب، المفردات: (خوف).
(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 1/ 541.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 240.
(4) الرّاغب، المفردات: (رهب).
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 242.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (هيب).
(7) الرّاغب، المفردات: (وجل)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 4/ 286.
(8) الفيروزآباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 5/ 165.
(9) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 218.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والثلاثون،
سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 33 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-75-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 33 : المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-75-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1130605 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»